العفة في غزل الشعراء الفرسان الجاهليين – عنترة أنموذجاً–

Chastity in the Love Poetry of the Pre-Islamic Knight-Poets: Antarah as a Model

إعداد الباحث:

م . د . محمد إبراهيم أحمد

Inst. Mohammed Ibrahim Ahmed, PhD

١٤٤٦هـ ٢٠٢٥م

الخلاصة:

تبلور مفهوم الغزل في الشعر العربي على مقومات إعجاب الرجل الشاعر بالمرأة، وتصوير ذلك كله بألفاظ عذبة، فكثير من الدراسات والأبحاث التي أقيمت على تكريس مفهوم شعر الغزل بنوعين هما الغزل الحسي أو المادي الذي يبنى على تصوير مظاهر المرأة ومفاتنها ونظم الشعر بإبراز تلك المفاتن بألفاظ صريحة في التعبير عن تلك الجزئيات التي تبلورت حول مفهوم الجمال الأنثوي، والآخر هو الغزل العفيف، إذ يتحدث عن علاقة شفافة تبوح بمكامن الحب القائم على العفة في الحديث مع النساء، والالتزام بمبادئ الخلق الرفيع والسلوك القويم، ولكون الدراسة قائمة على العصر الجاهلي،، ففي محاولة لرصد هذه الظاهرة الفنية ستبحث الدراسة هذا المفهوم من الأبيات التي انتظمت في قصائد أولئك الشعراء وفي زمنهم، وكيف تكونت نظرة الإنسان الجاهلي حول المرأة، وكيفية الخطاب كان معها، ثم يمكن النظر فيما إذا كان بالإمكان عدّ هذا العصر بمثابة النواة لهذا المفهوم فيما تلاه من غزل عفيف في العصور التالية .

الكلمات المفتاحية: العفة، عنترة بن شداد، الغزل العفيف، شعره العفيف.

Abstract

The concept of love poetry in Arabic literature crystallized around the admiration of the poet for the woman, expressing this admiration through sweet and delicate words. Many studies and research have focused on the establishment of the concept of love poetry in two forms: sensual or materialistic love poetry, which focuses on depicting the woman's appearance and beauty, expressing these physical features with explicit words that highlight the concept of feminine beauty, and the other form, which is chaste or platonic love poetry, describing a transparent relationship that reveals the depths of love based on chastity in communication with women, adhering to principles of noble character and proper conduct.

Since this study focuses on the pre-Islamic era, and considering that the concept of chaste love poetry was not clearly defined in this context according to previous studies—which suggest that this artistic concept became more focused in the Umayyad period—this study will explore this concept through the verses of poets from that time. It will examine how the pre-Islamic man viewed women, how the discourse was

framed, and whether this period could be considered the foundation for the subsequent development of chaste love poetry in later periods.
Keywords: Chastity, Antarah ibn Shaddad, Chaste Love Poetry, His Chaste Poetry

المقدمة:

تتناول هذه الدراسة مفهوم الغزل بشقه العفيف عبر دراسة أبيات غزلية للشعراء الفرسان في العصر الجاهلي، وتكونت هذه الدراسة من شخصية مهمة في العصر الجاهلي هو الشاعر الفارس عنترة بن شداد، هذا الرجل الذي ارتسمت حياته بميزات لم تكن مهيأة لغيره، منها أنه شاعر فحل وأحد الشعراء السبعة من أصحاب المعلقات الأمر الذي يأخذنا بجانب فعال لمثل هذه الدراسة، والأخرى أنه من الشعراء الفرسان الذين عرفوا ببسالتهم وقوة شكيمتهم، وتأكيداً وتوثيقاً له بالريادة والسبق في الفروسية، وثالثة أنه من الشعراء السود، ورابعة صراعه الدائب بين العبودية والحرية، هذه العوامل فجرت ينبوع القريحة ليسلسل أبياتاً منوعة لم تكن أقل حظوة من غيرها من قصائد العصر الذهبي للقصيدة العربية .

وعلى ما هو معروف أو معهود عن عنترة، شأنه شأن غيره من الشعراء الذين شهروا بحبهم لفتاة امتلكت ألبابهم وقلوبهم وتمكن حبها أن يكون شغلهم الشاغل، إلا أن غزله بعبلة كان يطرق الأسماع بعفته ورزانته، وهذا ما أخذه للخروج من دائرة الغزل المادي، فقد أخلص لها غاية الإخلاص، ولعلنا لا نذهب بالقول بعيداً أو نجافي الحقيقة أن هذا التعلق بعبلة كانت رافداً يشحذ قريحته ويلهمه فنون القول، فالمرأة في لب الجاهلي لذة الحياة ومتعتها، إن نال الرضا منها، وفاز بقربها، وهي نار تحرق فؤاده وتلهب جوارحه إن تمنعت عليه، فكان التمنع مقتحماً للصعاب، مكسراً للقيود، فلا غرابة أن يكون شعره بذكرها متسع لأطراف الحديث، وعلى ذلك " أن يجود المرء ببذل كل ما كان يقدر عليه مما كان ممتنعاً به قبل ذلك، كأنه هو الموهوب له، والمسعى في حظه، كل ذلك ليبدي محاسنه ويرغب في نفسه، فكم من بخيل جاد، وقطوب تطلق، وجبان شجع، وغليظ الطبع تطرّب، وجاهل تأدّب، وتفل تزيّن، وقفر تجمل، وذي سن تفتى، وناسك فتك، ومصون تمسك، وهذه العلامات تكون قبل استعار نار الحب وتأجج حريقه وتوقد شعله واستطارة لهبه، فأما إذا تمكن مأخذه فحينئذ ترى الحديث

سراراً والاعراض عن كل ما حضر الَّا عن المحبوب جهاراً " [١]، ومن الجدير بالذكر أن حياة الرجل في العصر الجاهلي شكِّلت بثلاثة محاور رئيسة هي المرأة والخمرة والفروسية، ولمكانة المرأة ومزيتها على مر العصور وليس حكراً على العصر الجاهلي، جاءت الفكرة على بناء هذه الدراسة معنونة بـــ " العفة في غزل الشعراء الفرسان الجاهليين ــ عنترة بن شداد أنموذجاً " محاولة لبحث أبيات الشاعر الغزلية والوقوف على تلك النماذج العفيفة، والتي يمكن أن تتوصل الدراسة إلى أنها كانت سبيلاً للغزل العذري فيما بعد في العصر الأموي، فقد قامت الدراسة على بناء فكرة العفة في الغزل الجاهلي، وربط ذلك بالفروسية، ورصد أبيات الطيف التي كانت تشكل جانباً مهماً من تأصيل فكرة العفة بالغزل، وثم نخلص إلى أن عنترة كان الأهم في تأصيل هذا الموروث الشعري العفيف في بناء مدرسة العذريين فيما بعد .

العفة في غزل الشعراء الفرسان (عنترة أنموذجاً)

في دراستنا هذه سنحاول الحديث عن قضية مهمة في الشعر الجاهلي أخذت مكانة مميزة في موضوعات الشعر وهي الغزل الجاهلي، لكن بتفرد العفة لدى الشعراء الفرسان، كون العلاقة القائمة بين الرجل والمرأة في العصر الجاهلي لم تكن في نمطيتها علاقة مادية فسيولوجية محضة، بل كان للمرأة مكانة مميزة في الحياة إذ كانت الملهم والدافع الشعري للرجل تهز عاطفته وتثير رغبته بأسباب القول [٢] دافعه في ذلك الحب ؛ ليعبر عن لوعاته وآلامه، وتصوير ذلك بأبيات شعرية تفيض عاطفة، فقرنت هذه العلاقة بأمور ثلاثة هي " وصف المحبوب وجماله وشعور المحب به، والمناسبة " [٣] فمتى استحكمت هذه الأمور وتشابكت كانت العلاقة على أتمها ووصل الشعور الغرامي مرماه، ويكون المحِّب ينظر بعين القلب فيتمنع عن رؤية أحد غير محبوبته .

وللحديث عن مفهوم العفة لابدّ من فهم هذا المصطلح، فالعفَّة " الكف عما لا يحلُّ ويجمُلُ، عفَّ عن المحارم والأطماع الدنيَّة، يعفُّ عِفَّةً وعفَّاً وعفافاً وعفافةً، فهو عفيفٌ" [٤]

---

(١) مختصر طوق الحمامة وظل الغمامة في الألفة والألاف لابن حزم الأندلسي : ١٥٥ .

(٢) الحب العذري نشأته وتطوره أحمد عبد الستار الجواري ٥١.

(٣) روضة المحبين ونزهة المشتاقين ١٠٣.

(٤) لسان العرب ٩ / ٢٩٠ ، والصحاح ٤ / ١٤٠٥.

وبذلك فإن الغزل الذي يحمل مبدأ العفة في الحديث إلى المرأة إنما هو تكريم لها، واعطائها مكانة مقدَّسة " والحشمة والحياء من أكرم الصفات التي يتوج الحب بها فيصان من الابتذال ويحتفظ بسموه وطهره"[١] وهذا ما يمكن رصده من خلال قول عنترة في التغزل بعبلة بتصويرها حينما طلب بعض أصحابه أن يصف لهم عبلة فقال (من الطويل):

لَعُــوبٌ بألبَــــابِ الرِّجَــالِ كَأَنَّهَــا ... إِذَا أسفَــرَتْ بدْرٌ بَدَا فـــي المحاشِـدِ
شَــكَـتْ سَقَماً كيمــا تُعَادُ ومــا بِـــهَا ... سِوَى فَتْرَةِ العَينَــينِ سُقْـــمٌ لِعَـــائِدِ
مِن البِيضِ لَــا تَلْقَــاكَ إِلَّــا مَصُـــونَةً ... وَتَمشِي كَغصْــنِ البَــانِ بَيْنَ الوَلائِــدِ
كَــأَنَّ الثُّـــرَيَّا حِـيْنِ لَاحَـت عَشِـيَّة ... عَلَى نَحْرِهَــا مَنْظُومَـــةٌ فِـــي القَلَائِــدِ
مُنَعَّمَـــةُ الأَطْـــرَافِ خَـــوْدٌ كَأَنَّهـــا ... هِــلالٌ عَلَى غُصْنٍ مِن البَــانِ مَائِـــد
حَوَى كُلَّ حُسن في الكواعِــبِ شَخْصُــهَا ... فليــسَ فيــها إِلَّا عُيُــوبُ الحَوَاسِــدِ[٢]

فالملاحظ من وصفه لها بهذه الكلمات العذبة الرقراقة بأنها كاملة الجمال لا يشوبها نقص ولا يعيبها شيء سوى كلام الحسَّاد وهو ما ليس فيها، فعبارات الشاعر في هذه اللوحة لم تحمل إلّا عفاف التوصيف مبتعدة عن سفاسف الكلام، فأحب الشعراء أن يزينوا المرأة بكل ألفاظ الحنان، هذا الحب الذي شغل عقل عنترة، وتملك من قلبه،هذا الحب وُلِدَ مقتبل عمره فنظم فيها صورة لطيفة أيام صباه مشيراً إلى أنَّه لم ييأس من حبها، فيقــول (من الكامل):

بَسَـــمَتْ، فَلَـــاح ضِـــيَاءُ لؤلـــؤ ثَغْـــرِهَا ... فِيْـــهِ لِـــداءِ العَـــاشقِينَ شِـــفَاءُ
سَـــجَدَتْ تُعَظِّـــمُ رَبَّهَـــا فَتَمايلـــت ... لِجَلَالِهـــا أَرْبَابُنَـــا العُظَمَـــاءُ
يَـــا عَبْـــلَ مِثْـــلُ هَـــوَاكِ أو أضـــعَافِهِ ... عِنْـــدِي إِذَا وَقَعَ الإِيَـــاسُ رَجَـــاءُ[٣]

ففي اللوحة الشعرية نجد أن الشاعر لم يتجاوز مبدأ الأخلاق والحديث المهذَّب في تجسيد ملامح محبوبته، فكان وصفه على ما هو سائد في عرف الناس ومذهبهم في وصف المرأة المحبوبة، مما يعكس ابتعاد الشاعر عن الاصطناع أو تزييف القول، مما يؤكد حقيقة أن غزل

(١) المرأة في الشعر الجاهلي علي الهاشمي ١٠٧.
(٢) شرح ديوان عنترة بن شداد / ٦٢ .
(٣) المصدر نفسه / ٦.

الشاعر ابتعد عن المادة الحسيَّة في القول أو وصف المرأة بما يخدش الحياء، لأن الجمال الداخلي للنفس يكون أصعب إدراكاً من الجمال الحسي، لأن هذا الجمال لم يتأت ليدرك بإحدى الحواس، وإنما يدرك ويستشف خارج أطر الجسد الملموس، وهذا الأمر إنما عقد لذي عقل قادر على النظر بعين الفكر الثاقب لما هو غير منظور عن طريق المنظور(١)، إن معاناة الحب عند الشاعر ألهبت النار في صدره، فكانت " حرارة العاطفة والثبات في هذا النحول والسقام والضنى الذي أكثر الشعراء من الشكوى فيه " (٢)، فكان أدب عنترة في حب عبلة رمزاً خالداً ومعاناته مسيرة شاقة أضنته وأجهدته في الوصول إلى قلبها إلا أنه لم يتمكن سوى من النظر، فما يكن من قوله فيها إلا أن ينفث سحر عفته بقوله (من البسيط):

أيَّامُ غُصْنُ شَبَــابِي في نُعُومَتِــهِ ... ألهُو بِمَــا فِيْهِ من زَهْرٍ وَمِنْ ثَمَرِ
فِي كُلِّ يَــوْمٍ لَنَا مِن نشرها سَحَرَاً ... رِيــحُ شَذَاهَا كَنَشْرِ الزَهْرِ فِي السَّحَرِ
وَكُلُّ غُصْــنٍ قَوِيْمٍ رَاقَ منظَــرُهُ ... مَــا حظُّ عَاشِقِها منهُ سِوَى النَّظَرِ(٣)

يتجسد مما رصف من أبيات دلالة على رصانة شاعرية عنترة لما يبغي توظيفه، وأنه متمكن من أدواته الشعرية بميله للنظم على بحور شعرية تناسب مبتغاه، ففي اللوحة الأولى نظمها على البحر الطويل الذي هو من أعظم البحور الشعرية أبهة وجلالاً، وإليه يعمد أصحاب الرصانة، فهو بحر رحب الصدر، لطيف النغمة، كما أنه مفضل عند الشعراء الأقدمين لصلاحه للقصص المتضمن في أشعارهم، وصلاحه لأخبارهم وماضيهم وأساطيرهم(٤) ، فهو صَلُحَ لقولهم في الغزل، وهذا ما لحظناه من نظم عنترة وحسن اختياره لألفاظه، فكست الكلمات رونقاً وأبهة تسللت لأعماق القلوب وداعبت العواطف، فطربت الأسماع، وتناغمت الأذواق لهذا النسج اللطيف الرائق، وكذا سار الأمر مع اللوحة الثانية التي نسجت على البحر الكامل فهذا البحر هو من أكثر البحور غنائية ولياناً وانسيابية واضحة(٥)، فهو لون خاص من الموسيقا إن أريد به الجد تجده فخماً جليلاً مع ترنم ظاهر، وتارة تجده ليناً رقيقاً حلواً إن أريد

(١) القيم الجمالية في الشعر الجاهلي / ١٧٥ .
(٢) المرأة في الشعر الجاهلي / ١٢٤ .
(٣) شرح ديوان عنترة / ٧١.
(٤) المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها / ٣٩٢.
(٥) العروض والقافية / ٣٨.

به الغزل فيكون كصلصلة الأجراس مع الأبهة التي تمنعه من أن يكون نزقاً [١]، فكانت الحركية التي يبث فيها الشاعر تلك الصور الفنية لتكون إشارة واضحة على تمكن وحسن تدبر للصنعة الشعرية عنده، والكيفية التي يحاور بها ويصف من عن طريقها لواعج الحب ومعاناته وآلامه وشوقه بتخيره لألفاظه بصورة مميزة كقوله (من الكامل):

وكأنَّ فــارةَ تــاجرٍ بقسيمةٍ ... سَبَقَتْ عَــوَارِضَهَا إِلَيْــكَ مِن الفَــمِ
أو روضــةً أُنُفاً تضمَّنَ نَبْتَــهــا ... غَيْــثٌ قليلُ الدِّمْنِ لَيْسَ بِمَعْلَمِ
جَادَتْ عليهِ كُلُّ عَينٍ ثَرَّةٍ ... فَتَرَكْنَ كُــلَّ قَرَارَةٍ كالدِّرْهَمِ[٢]

وغالب الصور في غزل الشاعر التي يحدثها في نفس المستمع أو القارئ لأشعاره، فإنها تحقق أثراً فيهم كون ألفاظه نابعة من بيئته وواقع حياته فكانت " الحشمة والحياء من أكرم الصفات التي يتوج بها الحب فيصــان عن الابتذال "[٣]، ومن ذلك قوله (من الكامل):

دَارٌ لآنِسَةٍ غَضِيْــضٍ طَرْفُــهَا ... طَوْع العَنَــاقِ لَذِيــذَةِ المُتَبَسِّــمِ[٤]

نرى أن عنترة يعطينا صورة حية متدفقة عن عفة حبه، وبما أنه من الفرسان فكانت شاعريته تصور مثالا مختلفاً عن الأمثلة الأخرى، فهو كشاعر فارس أضحت المرأة عنده بمنزلة مثالية ومكانة مقدَّسة، وكان التودد والتقرب منها يدفع في الحافز ويفجر الكوامن، ليثبت أقدامه في سوح الوغى، ويمضي ممتطياً جواده لا يغشى الحروب، ولا يرتعب النوازل، ويضحي من أجل حبها بحياته، فعاش مترفعاً عن الرزايا، مبتعداً عن الدنايا، فارساً في المعارك، وفارساً في حب عبلة، فكان صورة حية قولاً وفعلاً في عذريته تجاه محبوبته التي أختصها قلبه دون النساء، وتملكتها جوارحه بكل براءة، فهي المعشوقة العفيفة ذات الخلق العالي الرفيع[٥]، فكانت عفته فطرة سليمة لا يشوبها خلل فنراه يصف حاله مع جارتــه بغاية الأدب الرفيع فيقــول (من الكامل):

---

(١) المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها / ٢٦٤.
(٢) شرح ديوان عنترة بن شداد / ١٢٣.
(٣) الغزل في العصر الجاهلي / ١٦٢.
(٤) شرح ديوان عنترة بن شداد / ١٤٩.
(٥) دراسات نقدية في الشعر العربي – بهجت الحديثي / ٧٩.

أَغْشَـــى فَتَاةَ الحَيِّ عِنْدَ حلِيْلِهَا وَإِذَا غَزَا فِي الجَيْشِ لَا أَغْشَاهَا
وَّاغُــضُّ طَرْفِــي مَــا بَدَتْ لِــي جَارَتِي حَتَّى يُوَارِي جَارَتِي مَأْوَاهَــا
إِنِّــي امْرُؤٌ مَــحُ الخَلِيْقَــةِ مَــاجِدٌ لَا أَتْبِعُ النَّفَسَ اللَّجُــوجَ هَوَاهَا[١]

كان الحب قد شغل فكر وقلب عنترة، فهذا الفارس الهمام، والبطل المغوار الذي شهدت له الأيام، وأثبت له معاصروه، أنه جلد صلب في موضع الصلابة والقوة، إلا أنه حوى قلباً رقيقاً عطوفاً كانت تسعده ابتسامة، ونظرة حنونة، أكثر من لمسة دافئة [٢]، فكانت عبلة تثير فيه الحميَّة، وتلهب حماسه فقد ذكرها في أوقات يتوقف فيها الفارس عن كل شيء سوى ضرب السيوف، لكن حبَّها كان النبض المحرِّك، والدافع القوي لدقِّ أعناق أعدائه [٣] يقول: (من الكامل):

ولقد ذكرتك والرماح نواهل منـــي وبيض الهند تقطر من دمي
فـــوددت تقبيل السيوف لأنـــها لمعت كبارق ثغــرك المتبســم[٤]

إن روح عنترة المدمجة بين الفروسية والمحبة تسامت عن الرغبات الحسية والجسدية إلى مثالية التعفف، فكانت نفسه العاشقة تتودد لتقبيل السيوف المضمخة بالدماء لأنها تذكره بعبلة، فانصهرت فروسيته وشجاعته بعباراته الغزلية ليلوِّن صورة فريدة تعبر عن المفهوم الغزلي العفيف، ويعبر عن صورة ذلك الإنسان الرقيق الذي يعاني جلادة أبناء قومه، ونبذهم له بسبب لونه وبشرته، لكنه أضفى تجسيداً يميز شاعرنا عن غيره، فالمزاوجة بين أدوات الحرب وبين محبوبته قد يعكس نظرة في تفسير هذه اللوحات، كون السيف والرمح والسنان وغيرها ما هي إلا آلات قتل وهلاك لمن يلاقيه في الوقائع والمعامع، لكن ما شأن عبلة بهذا الأمر ؟ فما هي إلا دلالة بينة على توسله الطريق إلى قلبها، وهي إرادة عاكسة لصورة متمكنة من قدرته على استعمال ألفاظ العشق وتوجيهها بالطريقة التي يبرز فيها الشاعر لنا إظهار مفهومه للحب، وإلى هذا يذهب الدكتور بهجت الحديثي في رؤيته حول غزل الشعراء الفرسان في أن غزلهم كان أنموذجاً خاصاً مختلفاً عن باقي اللوحات الشعرية، فالمرأة عندهم قد احتلت مكانة مقدَّسة،

(١) شرح ديوان عنترة / ١٥٩ – ١٦٠.
(٢) الفروسية في الشعر الجاهلي / ٢٨٩.
(٣) الغزل في العصر الجاهلي / ٢٣٩.
(٤) شرح ديوان عنترة / ١٢٥.

وكانت حافزاً معنوياً يحرك فيهم البسالة والاقدام، وحبها داعماً لمواصلة خوض المعارك والثبات في مقارعة الأعداء والظفر بالنصر، فالشاعر الفارس يدافع عن قومه ويضحي بحياته من أجلهم ويحاول دائماً ابراز شجاعته وجوده وكرمه سعياً منه في رضاها(١)، وبالمعنى هذا يقول عنترة (من الكامل):

يَــا عَبْلَ خَلِّي عِنْكِ قَوْل المفْتَــرَى ... وَاصْغِي إلــى قَــوْلِ المَحِبِّ المَخْبِــرِ
وخُذِي كَلَامــاً صغْتُــهُ مِن عَسْجَد ... ومَعَانِيَاً رَصَّعْتَهَا بــالجَوْهَرِ
كَم مَهْمَــهٍ قفــر بِنَفْسِي خضْتُــهُ ... ومَفَاوِزٍ جَاوَزْتُهَا بالأَبْجَرِ
كم مِن جَحْفَلٍ مِثْــلِ الضَّبَابِ هزَمْتُــهُ ... بِمُهَنَّدٍ مَاضٍ وَرُمْحٍ أَسْمَرِ
كــم فَارِسٍ بَيْنَ الصُفُــوفِ أَخَذْتُهُ ... والخَيْلُ تَعْثُرُ بِالقَنَا المتَكَسِّرُ
يَا عَبْــلَ دُونَكِ كلَّ حيٍّ فاسألِي ... إنَّ كَــانَ عِنْدَكِ شُبْهَــةٌ فِــي عَنْتَــرِ
يَا عَبْــلَ هــلْ بُلِّغت يَوماً أَنَّنِي ... ولَّيْتُ مُنْهَزِماً هَزِيْمَةَ مُدْبِرِ
كم فارسٍ غادَرْتُ يَــأكُلُ لَحْمَهُ ... ضَارِي الذِّئَــابِ وَكَاسِرَاتُ الأَنْسُــرِ(٢)

يحاول هذا المحب أثبات ذاته أمام محبوبته ويصوغ لأجلها كلمات ترسم صورة مشرقة للفوز بها مهما واجه من تحديات ومهما لاقى من صعوبات، مشيراً إلى عدم اكتراثها بالقول المفترى عنه، ولم تفارق عبلة لبه وقلبه حتى وإن ابتعد عنها ففي خروجه إلى اليمن مع نفر من قومه كانت حاضرة أمام عينيه ولهيب شوقه لها لا ينطفئ، فيذكرها بقوله من الطويل:

إذَا الرِّيْحُ هَبَتْ مِن رُبَى العَلَمِ السَّعْدِي ... طَفَــا بَرْدَهَــا حَرُّ الصَّبَابَــةِ وَالوَجْدِ
وَذَكَّرَنِي قَوْمَاً حَفِظْتُ عُهُــودَهُم ... فَمَا عَرَفُوا قَدْرِي وَلَا حَفِظُوا عَهْدِي
وَلَوْلَا فَتَاةٌ فِي الخِيَامِ مُقِيْمَــةٌ ... لما اخترْتُ قُرْبَ الدَّارِ يَوْمَاً عَلَى البُعْدِ
مُهَفْهَفَــةٌ والسِّحْــرُ مِنْ لَحَظَــاتِهَا ... إذَا كَلَّمَتْ مَيْتَاً يَقُومُ مِن اللَّحْــدِ
أَشَــارَتْ إِلَيْهَــا الشَمْسُ عِنْدَ غُرُبِهَا ... تَقُولُ إِذَا اسْوَدَّ الدُّجَى فاطْلَعِي بَعْدِي
وَقَالَ لَهَا البَدْرُ المُنِيرُ: أَلَا أسفِرِي ... فَإِنَّكِ مِثْلِي فِي الكَمَالِ وَفِــي السَّعْــدِ(٣)

(١) دراسات نقدية في الشعر العربي ٧٩ – ٨٢.
(٢) شرح ديوان عنترة ٧٣.
(٣) شرح ديوان عنترة : ٦٠ – ٦١.

تفيض هذه الأبيات غزلاً رقيقاً لا يندي جبيناً ولا يشوبه تعكر صفو الحشمة، إلا أن ألفاظها تشير إلى قلق وحزن يخيم على قلبه فقوله " لما اختَرْتُ قُرْبَ الدَّارِ يَوْمَاً عَلَى البُعْدِ " فمهما بَعُدَ عنها إلا أنها حاضرة في قلبه ظاهرة لعينيه، ويطغى على ذلك القلق الشعور بالخوف قوله " إِذَا كَلَّمَتْ مَيْتَاً يَقُومُ مِن اللَّحْــدِ " فمن غير الممكن أن يتكلِّم الموتى أو أن ينهضوا من قبورهم ويعاودوا حياتهم السابقة، لكن المستحيل يكون طبيعياً عند وفود عبلة في منامه، ويرفد ذلك بأبهى تمثيل لها وألطف صورة وأبدع تصوير لها إن تنحني الشمس ويقر البدر المنير بجمالها ما حرَّك هذا الشعور وفجر ينبوع المحبة إلا قلب عاشق متلهب ممنوع الوصال من حبيبته، ولما كان للحب علامات صادقة تبدو على المحبِّ والذي " غرسته المرأة في قلب العربي التضحية الصادقة والاستبسال لأجل الحب وكان عنترة العبسي من الذين صوروا تلك التضحية والاستسلام خير تصوير فإن حبه واخلاصه جعله يستسلم لحبيبته بدون قيد أو شرط كما اعتاد أن يستسلم له الأبطال فحبيبته كانت بطل معركة حبه فتقدَّم إليها"[١]، قائلاً من الكامل:

أرضُ الشَّــرَبَّةِ تُرْبُهَا كَالعَنْبَرِ وَنَسِيمُهَا يَسْــرِي بِمِسْــكٍ أَذْفَرِ
وَقِبَابُهَا تَحْــوِي بُدُوراً طُلَّعَاً مِنْ كُــلِّ فَاتِنَةٍ بِطَرْفٍ أَحْــوَرِ
يَــا عَبْــلَ حُبُّــكِ سَــالِبٌ أَلْبَابَنَا وَعُقُولَنَــا فَتَعَطَّفِي لَا تَهْجُرِي
يــا عَبْــلَ لَوْلَا أَنْ أَرَاكِ بِنَاظِرِي مَا كُنْتُ أَلْقَــى كلَّ صَعْبٍ مُنْكَرِ[٢]

تمتزج الرؤية في ألفاظ هذا الأبيات بأنه الفارس الشجاع الهصور، الذي عركته الحروب، فغدا بطل السوح وكاسر شوكة الفرسان ومرعبهم، ففي الغالب المعتاد أن ألفاظ القصائد لهؤلاء الشعراء في العصر الجاهلي تخرج قاسية شديدة لموائمة الغرض ولبسط الصورة المنقولة عنهم، لكن الواقع الذي يقرأ من شعره، حتى في قصائده التي يعبر فيها عن فروسيته وبسالته وقوة شكيمته، تلين إذا ما يذكر عبلة فيمتلئ جو القصيدة بألفاظ العشق والهيام فتغدو كلماته رقيقة نديَّة، وهذا الترابط بين الصور المتجاورة، ففيها ثورة انفعالاته البطولية تسح تلك الصور لتنساب عشقاً وغراماً آسراً " إذ امتزج الرصيدان معاً الحب والفروسية، وأصبح لا

(١) المرأة في الشعر الجاهلي : ١٢٦ .

(٢) شرح ديوان عنترة : ٧٢.

غنى للشاعر عن أيٍّ منهما " [١]، فكان هذا الامتزاج هو الروضة المعطاء التي تثير فيه الحماس للقتال وتلهب نار الشوق فيه لينفث شعراً عفيفاً، على الرغم من المجتمع القبلي الذي يصعب فيه كبح الشهوات والسيطرة على الغريزة، فبه يكبح جماح تلك الغرائز فهو " لا يسرف إذا شرب، ولا يعربد إذا طرب، ولا يغوي المرأة إذا أحب، ولا يسرق اللذة التي حرمتها الأعراف والتقاليد "[٢] ويصف حاله هنا في معلقته فيقول من الكامل:

فَإِذَا شَــرِبْتُ فَإِنَّنِي مُسْتَهْلِكٌ مَالِي وَعِــرْضِي وَافِرٌ لَم يُكْلَمِ
وَإِذَا صَحَوْتُ فَمَــا أُقَصِّــرُ عَــنْ نَدَىً وَكَمَــا عَلِمْــتِ شَمَائِلِي وَتَكَــرُّمِــي[٣]

ونظر الدكتور طه حسين في حال عنترة فوجد أنه يمتلك " معاني الرجولة العربية التي يعمل الرجال على التشرب بها لتكوين شخصية فذة قادرة على التأثير في مجتمعهم، فكان عنترة رقيق دون أن تعصف به الرقة إلى تفكيك تلك المعاني الشامخة، وهو شديد دون أن تأخذه إلى الانفلات والقساوة المستقبحة، ووصفه بأنه صاحب شراب دون أن يؤدي به ذلك الكأس إلى فقدان مرؤته وسمو خلقه وطهارة أفعاله، كما أنه صاحٍ دون أن يبتذل صحوه فيقصر عما ينبغي له أن يكون مشتملاً على الفعال الكريمة والخلال النبيلة والصفات المحمودة، فهو دؤوب على اشتمال تلك المعاني الفضيلة والسمات النبيلة التي يتشرف بها الرجل العربي الكريم[٤] وتلك الصفات اجتمعت لتشكل صورة البطل الشجاع وأن هذه الشجاعة هي السبيل للظفر بعبلة مهما واجهته صعوبات وعثرات، فهو لا يسأم ولا يكل من طلب رضاها ونيل مودتها والفوز بها حتى وإن أقر قومه بقتله فيقول من الطويل:

فَهَل تَسْمَحُ الأَيَّــامُ يَا ابنَةَ مَالِكٍ بِوَصْلٍ يُدَاوِي القَلْبَ مِــنْ أَلَــمِ الصَّــدِّ
سَأَحْلُمُ عَــن قَــوْمِي وَلَــو سَفَكُوا دَمِي وَأَجْــرَعُ فِيْكِ الصَّبْرَ دُونَ المَلَا وَحْــدِي

(١) أشكال الصراع في القصيدة العربية في العصر الجاهلي، د . عبد الله التطاوي : ١٢٨.
(٢) الأدب الجاهلي قضاياه، أغراضه، أعلامه، فنونه : ٤١١.
(٣) شرح ديوان عنترة : ١٢٥.
(٤) ينظر : حديث الأربعاء : ١ / ١٥١.

وَحَقِّكِ أَشْجَانِي التَبَاعُدُ بَعْـدَكُم فَهَل أَنْتُـمُ أَشْجَـاكُمُ البُعْـدُ مِنْ بَعْـدِي[١]

وليس من عجب أن يطالعنا قول الشاعر حين يجانب طريق المحسوس والتغزل بما اعتاد الشعراء طرقه في باب الغزل، فنراه يتغاضى عن مفاتن الجسد متغنياً بلغة الروح التي تعدُّ أسمى وأطهر قولاً، وأفضل الفضائل التي توصف بها النساء، فهذا الفارس الذي تهاب ملاقاته الفوارس القساة العتاة، ويخضع لسلطان سيفه الرقاب الغلاظ، لينقلب بنا الحال إلى الانبهار والاعجاب من ذلك الشاعر الذي لم يجنح ليكون أسير الغريزة والحس فيتعالى ويرتقي في حبه وغزله العفيف ليقول من الكامل ويصف شدة شوقه لعبلة:

رِيْـحَ الحِجَازِ بِحقِّ مَـنْ أَنشَـاكِ رُدِّي السَّلامَ وحيِّـي مَنْ حَيَّاكِ
هِبِّ عَسَـى وَجْدِي يَخِفُّ وتَنْطَفِي نِيْرَانُ شَوْقِي بِبَرْدِ هَوَاكِ
يَا رِيْحُ لَوْلَا أَنَّ فِيْكِ بَقِيَّةً مِـنْ طِيبِ عَبْلَةَ مُتُّ قَبْلَ لِقَاكِ[٢]

وهذا العاشق المغرم الذي لم تنطفئ نيران قلبه، إذ نجده يتخذ السبيل لعبلة من جانب آخر، فيطرق باب طيفها ليعوض ما يكابده من واقع أليم محاولة لشفاء سقمه والتنعم بوصلها، فهو يصدح بذلك قناعة منه بالتقرب منها إن زاره طيفها، بل نجده يتضرع لها بذلك وأنه يكتم وجده ولظى الحب المستعرة في جوفه، فيتظاهر بالنوم لعله يبتغي ما يروم، وينعم بالطمأنينة والحبور بحضورها، فيقول من الطويل:

سَأُضْمِرُ وَجْدِي فِي فُؤَادِي وَاَكْتُـمُ وَأَسْهَرُ لَيْلِـي وَالعَـوَاذِلُ نُوَّمُ
وَأَطْمَـعُ مِنْ دَهْـرِي بِمَا لَا أَنَالُهُ وَأَلْـزَمُ مِنْهُ ذُلَّ مَنْ لَيْـسَ يَرْحَمُ
وَأَرْجُـو التَّدَانِي مِنْكِ يَـا ابْنَةَ مَالِكٍ وَدُوْنَ التَّدَانِي نَارُ حَـرْبٍ تَضَرَّمُ
فَمُنِّـي بِطَيْفٍ مِنْ خَيَالِكِ واسْأَلِـي إِذَا عَادَ عَنِّي كَيْـفَ بَـاتَ المُتَيَّـمُ[٣]

(١) شرح ديوان عنترة : ٦٢.
(٢) شرح ديوان عنترة : ٩٨.
(٣) شرح ديوان عنترة : ١٣٣.

وتارة نراه يقنع بزيارة طيفها له ولو مرة في الشهر، وفي هذا إشارة بيِّنة إلى حالة الحرمان التي تملكت عليه، لفقدانه الأمل من العيش بواقع حيٍّ جميل، فيسمع هتاف حمامة في ليل بهيم فيكلمها بأن حاله أمر من حالها، وأنه ليستغني عن الواقع بالخيال، والعيش في غياهب الأحلام لتحقيق ما يصبو إليه، فيقول من الطويل:

وَقَدْ هَتَفَتْ فِـــي جُنْـــحِ حَمَامَةٌ ... مُغَـــرِّدَةً تَشْكُـــو صُرُوفَ زَمَانِ
فَقُلْتُ لَـــهَا لَوْ كُنْتِ مِثْلِي حَزِينَةً ... بَكَيْـــتِ بِدَمْـــعٍ زَائِدِ الهَمَلَانِ
وَمَا كُنْتِ فِي دَوْحٍ تَمِيسُ غُصُونَهُ ... وَلَا خُضِبَتْ رِجْـــلَاكِ أَحْمَرَ قَانِي
أَيَا عَبْلُ لَـــو أَنَّ الخَيَالَ يَزُورُنِي ... عَلَـــى كُلِّ شَهْرٍ مَرَّةً لَكَفَانِي
لَئِـــنْ غِبْتِ عَنْ عَيْنِي يَا ابْنَةَ مَالِكٍ ... فَشَخْصُـــكِ عِنْـــدِي ظَاهِرٌ لِعيَانِي[١]

ولولا هذا طيف هذه الخود التي تُخجِل القمر المنير من بهجتها لقضى لياليه بالسهر والنوح، فيقول من المنسرح:

خَوْدٌ رَدَاحٌ هَيْفَـــاءُ فَاتِنَةٌ ... تُخْجِلُ بِالحُسْـــنِ بَهْجَةَ القَمَرِ
يَا عَبْـــلَ نَارُ الغَرَامِ فِي كَبِدِي ... تَرْمِي فُـــؤَادِي بِأَسْهُمِ الشَّرَرِ
يَا عَبْلَ لَوْلَا الخَيَالُ يَطْرُقُنِي ... قَضَيْتُ لَيْلِي بِالنَّوْحِ والسَّهَـــرِ[٢]

فكان حضور الطيف يشكل فرحاً وغبطة في قلب أثقل الغرام عليه حتى جنَّ وانبجست عيون المحبة لتملأ الأصقاع بأعذب الأشعار وأرقها وأعفها حناناً وشوقاً ولسنا مغالين بقولنا أن عنترة أفرد أبياتاً تفيض عبقاً من عفة، وهذه العفة لربما كانت سبباً في أخذ مفهوم الغزل العفيف إلى مفهوم الغزل العذري الذي نما بشكل واضح في العصر الأموي .

(١) شرح ديوان عنترة : ١٤٨.

(٢) شرح ديوان عنترة : ٧٦.

الخاتمة

بعد هذه الدراسة التي أخذتنا معها للنظر في أقوال شاعر فارس اجتمعت له أسباب القول العفيف الدافئ، هذا الفارس الذي تكورت حياته بآلام عدَّة، التصقت به ففجرت لديه ينبوع الشعر لتخلَّد أبياته على مرِّ العصور، ولا زالت تدرس وتبحث وينعم النظر فيها، ففي هذا الترحال الطيب وجدت الدراسة أن عنترة نجح في رسم وتوطيد الصورة الغزلية العفيفة بطريقة فنية رائعة، واستطاع من توظيف تلك الصورة بالشكل الذي سلَّح بها قصائده لتأخذ مكانها المميز كونها نابعة من تجربة حقيقية، وعاناها معاناة أصيلة، واستشعرها بكل جوارحه، ومن جانب آخر وجدت الدراسة أنه يربط بين فروسيته وحبِّه، ويسير بهما على نحو متوازٍ لا تقاطع بينهما، فكان حبَّ عبلة غذاء روحه، وملهم أفكاره، وممدٌّ له بأسباب الثبات في سوح الوغى، على أن فروسيته كانت لها نصيب طيب لأجل الفوز بالقرب من حبيبته، فما كل ضربة سيف إلا ولها سبق للتقرب والتودد، لكن التمنُّع عنه سار به نحو الحديث مع طيفها ومناجاة خيالها، إن كان حلماً، أو حلم يقظة، فعبَّر عما هاجت به نار الشوق ففاحت من أترجة المحبَّة كلمات الشوق الصادقة، كونه كابدها بكل لحظة من لحظات عمره، فكان في كل تصويراته الشعرية عفيفاً لطيفاً لا يخدش حياء من يطالع غزله، فترى الدراسة أن عنترة في غزله فتح باب الغزل العفيف لشعراء العصر الأموي وكأنه النواة التي انبثقت من تلك الأشعار فيما بعد .

المصادر والمراجع

١ – الأدب الجاهلي قضاياه، أغراضه، أعلامه، فنونه: د . غازي طليمات و أ. عرفان الأشقر، دار الإرشاد، حمص – سوريا، ط١، ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م .

٢ – أشكال الصراع في القصيدة العربية في العصر الجاهلي: د . عبد الله التطاوي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة – مصر، ٢٠٠٢ م .

٣ – الحب العذري نشأته وتطوره: أحمد عبد الستار الجواري، دار الكتاب العرب، مصر .

٤ – حديث الأربعاء: طه حسين، دار المعارف، القاهرة – مصر، ط١٤ .

٥ – دراسات نقدية في الشعر العربي: د. بهجت عبد الغفور الحديثي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد – العراق، ط١، ١٩٩٢م .

٦ – روضة المحبين ونزهة المشتاقين: الإمام أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (٦٩١-٧٥١)، تحقيق: محمد عزير شمس، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، مكة المكرمة – السعودية، ط١، ١٤٣١هـ .

٧ – شرح ديوان عنترة بن شداد: اعتنى بتصحيحه أمين سعيد، المطبعة العربية، مصر .

٨ – الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: اسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطّار، دار العلم للملايين، بيروت – لبنان، ط٤، ١٩٩٠م .

٩ – العروض والقافية – دراسة وتطبيق في شعر الشطرين والشعر الحر: د. عبد الرضا علي، دار الكتب للطباعة والنشر، الموصل – الجمهورية العراقية .

١٠ – الغزل في العصر الجاهلي: د . أحمد محمد الحوفي، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها، القاهرة – مصر، ط٢ .

١١ – الفروسية في الشعر الجاهلي: نوري حمودي القيسي، مكتبة النهضة، بغداد – العراق، ط١، ١٣٨٤هـ-١٩٦٤م .

١٢ – القيم الجمالية في الشعر الجاهلي: د . عبد الحسن حسن خلف، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت – لبنان، ط١، ٢٠١٧م .

١٣ – لسان العرب: للإمام العلامة ابن منظور (٦٣٠-٧١١ه)، اعتنى بتصحيحها: أمين محمد عبد الوهاب و محمد الصادق العبيدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، ط٣، ١٤١٩هـ-١٩٩٩م .

١٤ – مختصر طوق الحمامة وظل الغمامة في الألفة والألاف: تصنيف الإمام الكبير الفقيه الأديب أبي محمد علي بن أحمد ابن حزم الأندلسي (٣٨٤-٤٥٦هـ)، تحقيق: عبد الحق التركماني، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، ط١، ١٤٢٣ه-٢٠٠٢م.

١٥ – المرأة في الشعر الجاهلي: د . علي الهاشمي، مطبعة المعارف، بغداد – العراق، ١٩٦٠م .

١٦ – المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها: د . عبد الله الطيب المجذوب، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة – مصر، ط١، ١٣٧٤هـ – ١٩٥٥م .

Sources and References

1 – Pre- Islamic Literature **:** Its Issues Purposes, Notable Figures, And Arts: Dr, Ghazi Tulaymat and Mr, Irfan Al – Ashqar , Dar Al-Irshad, Homs , Syria, 1st ed, 1412AH – 1992AD .

2- Forms of Conflict in Arabic Poetry in the Pre—Islamic Era : Dr, Abdullah Al- Tatawi, Anglo – Egyptian Library, Cairo, – Egypt,2002AD.

3 – Platonic Love : Its Origins and Development : Ahmed Abdel Sattar Al-Jawari, Dar Al-KitabAl-Arab, – Egypt.

4 – WednesdayTalk: Taha Hussein ,Dar Al-Maaref , Cairo , – Egypt, 14thed.

5 – Critical Studies in Arabic poetry: Dr, Bahjat Abdel Ghafour Al-Hadithi , General Directorate of Cultural Affairs, Baghdad, Iraq, 1st ed, 1992 AD .

6 – Rawdat al-Muhibbin wa Nuzhat al-Mushtaqin: Imam Abu Abdullah Muhammad ibn Abi Bakr ibn Ayyub ibn Qayym al-Jawziyya (691-751), edited by Muhammad Uzair Shams, Dar Alam al- Fawaid for Publishing and Distribution, Macca, Saudi Arabia, 1st ed, 1431 AH .

7 – Explanation of the Diwan of Antarah ibn Shaddad: Edited by Amin Saeed, Al-Arabiya Press, – Egypt.

8 – Al-Sihah, the Crown of Language and the Correct Arabic poetry: Ismail ibn Hammad al-Jawhari, edited by Ahmed Abd al-Ghafur Attar, Dar al-Ilm lil-Malayin, Beirute, Lebanon, 4th ed, 1990 AD .
9 – Poetry and Rhyme – A Study and Application in Tow-Line Poetry and Free Verse: Dr, Abd al-Rida Ali, Dar al-Kutub for printing and Publishing, Mousl, Republic of Iraq.
10 – Ghazal in the pre-Islamic Era: Dr, Ahmad Muhammad al-Hawfi, Nahdat Misr Library and press, Cairo, – Egypt .
11 –Chivalry in pre-Islamic Poetry: Nuri Hamoudi Al-Qaisi, Al-Nahda Library, Baghdad, Iraq, 1st ed,1384 AH - 1964 AD .
12 – Aesthetic Values in Pre=Islamic Poetry: Dr, Abdul-Hassan Hassan Khalaf, Arab Foundation for Studies and Publishing, Beirut, Lebanon,1st ed, 2017 Ad.
13 – Lisan Al-Arab: by the great scholar Ibn Manzur (630 – 1971), edited by Amin Muhammad Abdul-Wahhab and Muhammad Al-Sadiq Al-Ubaidi, dar Ihya' Al-Turath Al-Arabi, Beirut, Lebanon, 1993 – 1999 AD .
14 – A Summary of the Ring of the Dove and the Shadow of the Cloud on Intimacy and Intimacy: Written by the Great Imam, Jurist, and Man of Letters Abu Muhammad Ali ibn Ahmad ibn Hazm Al-Andalusi (384 AH -1456 AD), edited by Abdul-Haqq Al-Tuakmani, ibn Hazm House for Printing, Publishing, and Distribution, Beirut, Lebanon, 1st ed, 1423 AH – 2002 AD .
15 – Women in Pre-Islamic Poetry: Dr, Ali Al-Hashemi, Al-Maarif Press, Bsghdad, Iraq, 1960 AD .
16 – A Guide to Understanding Arab Poetry and 1st Making: Dr, Abdullah Al- Tayeb Al-Majzoub, Siya Company and Mustafa Al-Babi Al-Halabi and Sons Press, Cairo, Egypt, 1st ed, 1374 AH – 1955 AD .